المحاضرة الرابعة : المنهج التاريخي فرديناند برونتيير (1849 /1906)

يعد الناقد ( برونتيير ) تلميذ ( تين ) من أ صحاب الاتجاه العلمي التجريبي ،حاول دراسة الأدب من منظور تاريخي مع الإستناد في ذلك إلى نظرية (النشوء والإرتقاء) لداروين . لقد كان منجذبا إلى هذه النظرية التي سبقه إليها في التطبيق ( سبنسر ) حينما طبقها على الإجتماع والأخلاق . استلهم ( برونتيير ) نظرية (داروين) في تطور الجنس البشري ، لكي يقيس عليها تطور أنواع من الادب ، محاولا البرهنة على أن الادب يتطور مثلما يتطور الجنس البشري.

إن تطور الأدب عنده لا يختلف عن تطور الأحياء والنباتات . وانطلاقا من هذا راح يطبق منهج ( داروين) في دراسته للأحياء على الأدب ، وحسب هذه النظرة يكون النوع الادبي مثل النوع البيولوجي ، ينشأ وينمو ويتطور ثم ينقرض ، لكن المنقرض منه لا يفنى ويتلاشى تماما وإنما تمتد عناصر منه في النوع الذي يتطور عنه كتطور القصة عن الملحمة الشعرية القديمة بعد انقراضها .

لقد طبق (برونتيير) هذه النظرية على ثلاثة أجناس من الادب هي المسرح والشعر الغنائي والنقد الادبي ، فكتب في عام 1890 " تطور النقد" ، وفي سنة 1892 " عصور المسرح الفرنسي " ، وفي عام 1894 " تطور الشعر الغنائي" . وفي مجال المسرح قال : " إن التراجيديا الفرنسية ولدت مع جوديل ، ونضجت مع كورني ، وشاخت مع فولتير ثم ماتت مع هيغو "-1-

إن ما يستوجب الإشارة إليه في هذا الصدد أنه في حديثه عن الأجناس الادبية استخدم فكرة الصراع من أجل البقاء ، لكي يصف نزاع الاجناس الادبية فيما بينها ، وكيف تتحول بعض الاجناس إلى أجناس اخرى .

وخير ما يمكن التمثيل به في هذا المجال ، هو الوعظ الديني الذي كان منتشرا في القرن السابع عشر وتطور إلى الشعر الغنائي أو ما يعرف بالشعر الرومانسي في القرن التاسع عشر . ففي محاولة تفسير تولد الاجناس او الانواع الادبية طبق نظرية ( التطور وأصل الاجناس )،وهي النظرية التي ترى بان جنسا من الحيوانات قد نتج عن جنس اخر و كذا الامر بالنسبة للخطابة الدينية التي تحولت بموضوعاتها إلى الشعر الرومانتيكي.-2

غير ان بعض الدارسين تحفظوا ، ورفضوا فكرة تحول بعض الفنون إلى فنون أخرى نحو ما نجده عند محمد مندور الذي يرفض رأي (برونتيير ) ويراه مغالاة وشططا ، بل " وغفلة عن مصادر الظواهر الادبية ، فالوعظ قد استقى من كتب الدين وقصد إلى ذلك قصدا ، واما الشعر الرومانتيكي فقد كان وليد احداث تاريخية بعينها اذ نراه في أعقاب الثورة الفرنسية .-3

1-احمد صقر ، فرديناند برونتيير رائد الاتجاهات الوضعية في النقد

2-ينظر صالح هويدي ،النقد الادبي الحديث قضاياه ومناهجه ،ض116.

3- محمد مندور ، في الادب والنقد ،ص101 .

و هناك من يرى بأن التطور عند ( برونتيير ) بهذه الصورة ، غير مستساغ ويبتعد عن المنطق ، وليس صحيحا ، لأن التطور يكون في نفس النوع والصنف ، ولا يتطور إلى شيء اخر كما أن الانواع الادبية في تطورها لاتقضي على بعضها تماما يقول شوقي ضيف : " إن الانواع الادبية تنشأ وتنمو وتتطور متدرجة من زمن إلى زمن ، كما تنشأ وتتطور الكائنات العضوية ، ولكن يجب أن ننبه إلى ما بين الجانبين من فروق ، فإن الأطوار الأدبية لا تقضي على بعضها بعض ولا تمحو بعضها بعضا " -1

من الصعب جدا أن نعتقد مثلما ذهب ( برونتيير ) إلى أن نوعا ادبيا قد يفنى في آخر ، أو يتحول إليه بحيث يذوب فيه مع اختلافه معه أمر نراه بعيدا عن الدقة .

يرى محمد مندور : " أن محاولة إقحام النظريات العلمية على الادب ، أو محاولة إخضاع الادب لهذه النظريات لايمكن أن يفيد الادب بشئ جدي ، ولعله يفسده، إذ لابد أن ينتهي الأمر عندئذ باهمال الكثير من حقائقه وتفاصيله التي تتعارض مع هذه النظريات العلمية "-2- .

وهذا ما ذهب إليه ( رونيه ويليك ) لما وصف نظرية (داروين) ، ومن طبقها أمثال ( برونتيير ) بأنها نظرية فاسدة في حال تطبيقها على الادب ، " لأن الادب لا يضم أنواعا ثابتة شبيهة بالانواع البيولوجية ، فليس هناك نمو وانقراض حتميا ولاتحول من نوع إلى نوع ، ولا صراع حقيقي من أجل البقاء بين الأنواع "

1-شوقي ضيف ، النقد الادبي ، ص95 .

2-محمد مندور ، في الادب والنقد ص 101.